# استراتيجية وتكنيك التنمية الاقتصادية في الإسلام

دكتور

يوسف إبراهيم يوسف

كلية التجارة - جامعة الأزهر

# الباب الأول

## العالم الإسلامي ومناهج التنمية

### تمهيد:

لا يختلف اثنان في عالم اليوم، على أن تحقيق التنمية الاقتصادية في العالم الإسلامي، والذي يمثل أكبر رقعة من العالم المختلف، أمر حيوي إلى أبعد حد، بل لا نبالغ - إذا استخدمنا التعبير الذي تمرأ من كثرة استخدامه - فقلنا: إن تحقيق التنمية الاقتصادية في هذا العالم، مسألة حياة أو موت، فإن نجح العالم الإسلامي في اكتشاف طريق ينتهي بالتقدم الاقتصادي، فقد كتبت له الحياة وإن ضلها فقد تودع منه.

وطريق التنمية هذا، هو المنهج الذي يمكن أن يسير عليه هذا العالم صوب التقدم. وإذا رنا المرء بعين فكره نحو المناهج الإنمائية التي تتنازع الساحة الفكرية في العالم الثالث أجمع، والعالم الإسلامي بالذات، وجد أن هذا الفكر قد ضيق على نفسه مجال اجتهاده حتى ليكاد أن يصاب بالعقم الفكري، فهو ينطلق من مقولة مؤداها: «إن الموجود من مناهج التنمية هو ما يمكن إيجاده»، ومن ثم فليس هناك مناهج يمكن استخدامها لتحقيق التنمية الاقتصادية غير المنهج الاشتراكي أو المنهج الرأسمالي. وهو بهذا قد حكم على نفسه بالتردد بين المنهجين مستجيراً من رمضاء أحدهما بنيران الآخر، فإذا طبق المنهج الرأسمالي، وتبين بعد فترة أنه يقبض من ثمار التنمية على الهواء،

وخاب أمله فيه، اتجه صوب المنهج الاشتراكي ليس بناء على اختيار واع، وإنما حنقاً من فشل الرأسمالية لديه، في الوقت الذي يشاهد فيه نجاح الاشتراكية في مواطنها، ولو فكر قليلاً لأدرك أن الرأسمالية التي فشلت لديه قد نجحت هي الأخرى في مواطنها، ومن ثم فنجاح منهج إنمائي في منطقة من المناطق لا يقوم شاهداً على إمكانية نجاح نفس المنهج في منطقة أخرى. فلا تستقيم له المحاولة، لأنه بما يدخل روحاً إسلامية في جسم غريب ترفضه ويرفضها، فلا الرأسمالية بمتفقة مع الإسلام، ولا الاشتراكية بمؤتلفة معه.

وما كان العالم الإسلامي ليقع في هذه الورطة لولا المقولة السابقة التي سيطرت على مفكريه إلا من عصم الله، فما المناهج الاقتصادية إلا محاولات من جانب الإنسان لحل المشكلة الاقتصادية التي تواجهه بالطريقة التي تتفق والظروف الاقتصادية والنفسية والتاريخية التي تحيط به[1]، وهذان المنهجان ثمرات للفكر البشري، واستجابة لمثل هذه الظروف التي وجدت في المجتمعات الأوروبية، وما عقم الفكر البشري، ولم يختزل المجتمعات في النمط الأوروبي، فكيف نسلم باستقطاب المنهجين للفكر في العالم الإسلامي؟

إن مقتضى اختلاف الظروف المحيطة بالإنسان المسلم، عن الظروف التي أحاطت بالإنسان الأوروبي عند نشأة المنهجين، يقتضي اختلاف المنهج الذي يمكن أن تتحقق به التنمية الاقتصادية في العالم الإسلامي، وأن يكون المنهج المطلوب مشتقاً من بيئة هذا العالم وثقافته، قادراً على أن يجند طاقات جماهيره، باتفاقه مع القيم والمبادئ التي تؤمن بها هذه الجماهير.

---

(1) د. صلاح نامق، النظم الاقتصادية المعاصرة، مكتبة عين شمس، القاهرة، بدون رقم، سنة 1972، ص (ز).

وهذا الباب يناقش المقولة السابقة، فيعرض المنهجين اللذين استحوذا على أذهان معظم المفكرين في العالم الإسلامي ليبين مدى صلاحيتهما، وهل تختلف هذه الصلاحية في المواطن الإسلامية عنها في مواطن نشأة هذه المناهج أم أنها لا تختلف؟ كما يعرض نتائج تطبيق هذه المناهج في العالم الإسلامي ليرى إن كانت هذه النتائج تحكم لها أم عليها، ثم يلفت النظر إلى وجود منهج كامن في عقائد هذه الشعوب وثقافاتها وتراثها، سبق له أن حقق لها النمو والتقدم عندما التزمت به، فهل هذا المنهج يحتوي على فكر إنمائي، يستطيع الوقوف بجوار المنهجين المذكورين؟ وهل يمكن أن يضع العالم الإسلامي على جادة الطريق، لينجح في اختيار الحياة وتفضيلها على الفناء؟ إنها دراسة لتاريخ الفكر الإنمائي الإسلامي على مر العصور، ومن هذا النقاش نحاول تقويم المناهج المعروضة على ساحة الفكر الإنمائي، عملاً بالنسبة للرأسمالية والاشتراكية، ونظرياً وعقائدياً بالنسبة للمنهج الإسلامي، وسيتم ذلك من فصلي هذا الباب وهما:

**الفصل الأول:** المناهج المطروحة على ساحة الفكر الإنمائي في العالم الإسلامي.

**الفصل الثاني:** الفكر الإسلامي في التنمية الاقتصادية على مر التاريخ.

# الفصل الأول

## المناهج المطروحة على ساحة الفكر الإنمائي في العالم الإسلامي

### تمهيد:

اتضح مما سبق وجود مذهبين اقتصاديين كبيرين يقتسمان العالم والسيادة عليه فكراً وعملاً، وكل منهما يحاول جاهداً استباق السيادة والتفرد بتوجيه العالم ليكون المذهب الكوني، والفكر الوحيد إن استطاع. هذان المذهبان هما: الرأسمالية والاشتراكية، أولهما متبنى من العالم الأول، وثانيهما متبنى من العالم الثاني، ويصطرعان على ساحة العالم الثالث، يود كل منهما لو يجذبه إلى ملكه، ويفرض عليه فلسفته. ودول العالم الثالث - وهي تخضع لوسائط الإعلام التي يسيطر عليها أصحاب المذهبين، وغالبية مفكريها قد تربوا على فكر أصحاب المذهبين - تساق إلى تجربة هذا المذهب مرة وذاك مرة أخرى، فإن تجرأت على الاجتهاد فاقتحمت أسواره وجدت نفسها أسيرة ما تعلمه مفكروها على أيدي أصحاب المذهبين، فابتكرت أسلوباً ثالثاً يأخذ من كل مذهب بطرف، فنشأ لديها من ذلك أسلوب ملفق تظهر فيه آثار الاستقطاب بأكثر مما تظهر في تبني أحد المذهبين، إذ أن ذلك يعني أنها بذلك جهداً للخروج من آثار المذهبين فلم تجد إلا الجمع بينهما، فهو يؤكد فكرة سيادة المذهبين ولا يقال منها.

وفي هذا الفصل سنعرض بموضوعية تامة كلاً من المنهج الرأسمالي والمنهج الاشتراكي، وذلك الذي يجمع بينهما. وذلك في المباحث الثلاثة التي يتكون منها وهي:

**المبحث الأول:** عرض موضوعي للمناهج المطروحة على العالم الإسلامي.

**المبحث الثاني:** مدى إمكانية تحقيق التنمية بتلك المناهج في العالم الإسلامي.

**المبحث الثالث:** نتائج تطبيق تلك المناهج في العالم الإسلامي.

# المبحث الأول

## عرض موضوعي للمناهج المطروحة على العالم الإسلامي

### تمهيد:

علمنا أن البلاد الإسلامية والنامية بشكل عام تتردد بين تبني الأسلوب الاشتراكي مرة والأسلوب الرأسمالي أخرى. فإن خرجت عنهما لجأت إلى الجمع بينهما، فإطارها الفكري محدود بالأسلوبين لا يتجاوزهما، وبعرض هذه الأساليب نكون قد عرضنا المناهج المطروحة على الساحة الإنمائية العملية. وبهذه المهمة يتكفل هذا المبحث في مطالبة الثلاثة الآتية:

**المطلب الأول:** المنهج الرأسمالي.

**المطلب الثاني:** المنهج الاشتراكي.

**المطلب الثالث:** المنهج الجامع بينهما.

# المطلب الأول

# المنهج الرأسمالي

## تمهيد:

سنركز في عرض هذا المنهج على جوانب ثلاثة تعطي فكرة واضحة ومختصرة عن جوهر هذا المنهج. وتتمثل هذه الجوانب في بيان خصائصه وسماته، وفي بيان مقومات نجاحه، وأخيراً الظروف التي واكبت هذا النجاح. وذلك في فروع هذا المطلب الثلاثة وهي:

**الفرع الأول:** خصائص المنهج الرأسمالي.

**الفرع الثاني:** مقومات نجاح المنهج الرأسمالي.

**الفرع الثالث:** الظروف التي واكبت نجاح المنهج الرأسمالي.

## الفرع الأول: خصائص المنهج الرأسمالي

توجد مجموعة من الخصائص يتميز بها المنهج الرأسمالي عن غيره من المناهج وهي:

### 1 ـ الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج:

حيث تعطي الرأسمالية للأفراد حق تملك سائر أموال الإنتاج، فضلاً عن أموال الاستهلاك، وتقوم هذه الخصيصة من الرأسمالية مقام الروح من الجسد، إذا نزعت منه فقد الحياة، وهي تؤدي وظائف جوهرية في النظام أهمها تعيين

المختص باتخاذ القرارات المتعلقة باستخدام أموال الإنتاج، كما تقدم الباعث على تراكم الثروة والمحافظة عليها.

## 2 ـ حرية المشروع:

فللمشروعات حرية توجيه جهودها وطاقاتها الوجهة التي تريدها دون تدخل من أحد، يحدوها في ذلك حافز الربح الذي هو أحد مقومات النظام الرأسمالي وعوامل نجاحه، ومن المفترض أن هذه المشروعات تستجيب لاحتياجات الأفراد وتلبي طلبهم وهي بسبيل تحقيق أقصى ربح ممكن، إذ لو قامت بإنتاج ما لا طلب عليه لمنيت بالخسائر وخرجت من مضمار الإنتاج.

## 3 ـ المنافسة وجهاز السوق والأثمان:

تمثل هذه الخصيصة ركناً لا يقل في النظام الرأسمالي أهمية عن الملكية الخاصة، وتعني أن يكون لكل سلعة أو خدمة أو عامل إنتاجي سوق يلتقي فيه الطالبون بالعارضين في ظل المنافسة الكاملة، حيث تحدد الثمن المعبر عن قيمة السلعة أو الخدمة أو العامل الإنتاجي.

وهذا الجهاز هو الذي يحكم النظام الرأسمالي، فكمية الإنتاج وكيفيته وأسعاره كلها تتحدد وفقاً للمواجهة الحرة دون تدخل من الحكومة أو توجيه من خطة قومية، بل المنافسة هي التي تحدد الكميات والأسعار بما يحقق تعادل العرض والطلب. كذلك فإن هذا الجهاز يقوم بتوزيع الموارد الاقتصادية بالمجتمع بين مختلف الاستعمالات، فالأثمان هي أساس كافة القرارات التي يتخذها الفرد منتجاً كان أو مستهلكاً، كذلك يقوم بتوزيع

الدخل والثروة بين أفراد المجتمع عندما يحدد أسعار عوالم الإنتاج فيحدد نصيب الفرد طبقاً لما لديه منها.

وبعبارة موجزة فإن جهاز الثمن يقوم في الرأسمالية بمهمة حل كافة جوانب المشكلة الاقتصادية، ومن ثم فلا غرابة أن يوصف النظام بأنه «اقتصاد السوق» وإذا كانا لا نرى له هذه الأهمية في الاقتصاديات الرأسمالية المعاصرة بعد التدخل الحكومي، فإننا نستطيع أن نستشف ـ رغم ذلك ـ مدى عظم الدور الملقى على عاتق السوق في حل المشكلات الاقتصادية الرئيسية.

## الفرع الثاني: عوامل نجاح المنهج الرأسمالي

غير منكور من أحد أن الرأسمالية حققت في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، نجاحاً كبيراً في ميدان التنمية الاقتصادية والتقدم المادي، وإنها كانت خطة كبيرة للإنسانية[1] في مجال السيطرة على الطبيعة عندما حققت الثورة الصناعية، ذلك الإنجاز الضخم بصرف النظر عن استخدامه في تسخير الإنسان نفسه، كتسخيرها للطبيعة، بل إنها لم تسخره فقط بل استبعدته فعلاً عندما قامت باسترقاق شباب غرب أفريقيا لتحقيق التنمية الاقتصادية في العالم الجديد[2].

وللتقدم المادي الكبير الذي حققته الرأسمالية عوامل أدت إليه، بعضها لصيق بالرأسمالية وخصائصها، والبعض الآخر صاحب قيامها بالتنمية

---

(1) د. أحمد جامع، الرأسمالية الناشئة، دار المعارف، القاهرة، د 1، سنة 1968، ص 146.

(2) Toynbee, A.: the world and the west, London. Oxford University press, 1952, p 8.

مصادفة. والعوامل الأخيرة هي محل عناية الفرع التالي، أما الأولى فهي محل عناية هذا الفرع وهي:

1 ـ حافز الربح وقيامها عليه، قدم مساهمة كبرى في نجاحها، إذ هو يمثل استجابة من الرأسمالية لشعور كامن في الإنسان ومجبول عليه ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1]، فهي من هذه الناحية لا تصادم فطرة الإنسان بل إنها تطلق لها العنان إلى الحد الذي يحيلها إلى نهم، فتجعل الرأسمالي ذلك المخلوق الذي يسعى للمال من أجل المال فلا يشبع مهما بلغت ثروته، والإنسان بغريزته «لو ملك وادياً من ذهب لابتغى ثانياً، ولو ملك واديين لابتغى ثالثاً»[2] فليس لنهمه نهاية إلا إذا تدخلت اعتبارات أخرى تهذب من هذه الغريزة، وتلك الاعتبارات ليس لها وجود في الرأسمالية فحافز الربح قد ائتلف مع غريزة الاستحواذ ونهم التملك الكامنة في الإنسان فقاد إلى نجاح الرأسمالية الهائل في عالم الأشياء المادية، فحقق التنمية بمقاييسها المعتبرة في الفكر الوضعي[3].

2 ـ الملكية الخاصة: فوجودها يعضد الآثار السابقة لحافز الربح، بل إنه من غيرها ليس له معنى، فالإنسان مجبول على حب الاستحواذ والتملك كما قلنا، فتقرير الملكية الخاصة يوافق هذا الطبع فيه ويجعل حافز الربح ذا أثر يحيل الفرد إلى خلية نشطة تقدم على الادخار وتكوين رأس المال حباً في التمتع بالملكية التي جبل على حبها.

---

(1) سورة الفجر، الآيتين: 19 ــ 20.

(2) الجامع الصغير، ج 2، ص 265.

(3) سنرى أن للتنمية مفهوماً لا يقصرها على عالم الأشياء ولا يجعل المادة هي كل شيء، انظر نتائج الفصل الثالث من هذا الباب.

كذلك تؤدي الملكية الخاصة إلى أن يحافظ الفرد على ما بيده من عوامل الإنتاج، فتتم المحافظة على رؤوس أموال المجتمع، ويتحقق النمو الدائم في ثروته، وقد كان ذلك بالفعل هو الطريق الذي سارت الرأسمالية على درجه حتى حققت ما حققت من إنجازات مادية.

3 ـ حرية الفرد في ممارسة النشاط الاقتصادي تحمل مدلولاً إيجابياً أفرز للرأسمالية طائفة من الناس حملوا على عاتقهم مهمة تحقيق التقدم وكانوا لها مهاميز، ذلكم هم المنظمون الذين قاموا بتطبيق الاختراعات المتتالية في مجالات إنتاجية جديدة، وابتكروا من أساليب الإنتاج ما مكنهم من أداء أجل الخدمات للنظام الرأسمالي، وكانوا من عمد نجاحه، بل أن بعض المفكرين يرجع معظم ما أحرزته الرأسمالية من تقدم إلى هذه الطائفة[1]. وما كان لهذه الطائفة أن توجد لولا ما تتضمنه الرأسمالية من حرية النشاط لاقتصادي ورفع كل القيود عن ممارسته.

تلك هي العوامل التي تكمن خلف نجاح النظام الرأسمالي، وتعود إلى جوهره وصميم تكوينه، وهناك عوامل أخرى ساهمت في نجاح النظام الرأسمالي دون أن يكون لها دخل بجوهره، وإنما صاحبت وواكبت مسيرته مصادفة وهي ما سنتناوله في الفرع التالي:

## الفرع الثالث: الظروف التي واكبت نجاح المنهج الرأسمالي

أتيح للنظام الرأسمالي إبان نشأته وصاحبته في تطوره عوامل ساعدت وضاعفت النجاح الذي كان يمكن للعوامل السابقة ـ والتي تعود إلى جوهر

---

(1) Shompeter, J.: the theory of Economic development, Cambridge, Harvard university press, 1960, p 68.

النظام ـ أن تحققه، فلولا العوامل المصاحبة هذه ما كان الإنجاز الرأسمالي بالصورة التي هو عليها، ويمكن إجمال أهم هذه العوامل فيما يلي:

1 ـ أتيح للرأسمالية فرصة السبق التكنولوجي، عندما تمكنت من الاستفادة من مجموعة من الاختراعات ربما لم تكن أهم ما عرفته البشرية، لكن المهم فيها كان في توفر ظروف همها التراكم الرأسمالي في أوربا إثر قيامها بنهب ثروات الشرق أبان الحروب الصليبية. وثروات الأمريكتين وبخاصة ذهب أمريكا الجنوبية. وبذلك تمكنت أوروبا من استغلال مجموعة الاختراعات هذه، فتحقق لها السبق التكنولوجي الذي مكنها من إحلال الصناعة الآلية محل الصناعة اليدوية تدريجياً. فكانت بذلك ورشة العالم أو حاضرته، وهو من حولها ريف وتبع، وتمكنت من غزو أسواق العالم بمنتجاتها الرخيصة، والتي لم تكن تستطيع جماهيرها استهلاكها بسبب ضعف القدرة الشرائية نظراً للاستغلال الواقع عليها. ومن ثم تضاعف التراكم الرأسمالي واستخدم في تحويل الاختراعات المتوالية إلى ابتكارات وتجديدات استغلت فيها خصائص الرأسمالية ممثلة في حافز الربح وحرية النشاط وحق التملك.

2 ـ أتيح لأوروبا الرأسمالية السيطرة الكاملة تقريباً على معظم أنحاء المعمورة، فكانت موارد العالم تحت سلطانها، وتمكنت صناعاتها من الحصول على إمدادات شبه مجانية من المواد التي لا توجد بأراضيها، فأعطاها ذلك طاقة على تحقيق فائض القيمة وزيادة التراكم، وتكوين رأس المال وإثبات نجاحها في عالم الماديات والأشياء، وكان ذلك من أهم العوامل التي ساعدتها على إقامة هذا البناء الضخم. ولعل مثالاً مشاهداً لنا ـ مثل مادة النفط ـ يعطينا مدى ما لعبته سيطرة أوروبا على موارد العالم من أثر في نجاحها. لقد

كانت تحصل على بترول العالم الثالث بثمن أقل من أن يوصف بأنه بخس حتى أكتوبر عام 1973، واعتمدت عليه اعتماداً رئيسياً كمصدر للطاقة من ناحية، وكمادة أولية للصناعات البتروكيمائية التي أصبحت على رأس الصناعات التي تمد الناتج القومي في العالم الرأسمالي، فهذا المثال يعطينا إلى أي مدى قام نجاح وتقدم النظام الرأسمالي على أكتاف العالم الثالث بتمكنها من الحصول على موارده - حتى اليوم - بأثمان مزجاة، فما البترول إلا مادة من بين عشرات مثلها، تحصل عليها الدول المتقدمة من العالم الثالث بهذه الأثمان.

ولو قمنا بتجريد النجاح الرأسمالي المادي من مثل هذه العوامل، فحرمناها من الموارد التي سيطرت عليها، أو حتى كلفناها بان تدفع لنا أثماناً تعادل قيمتها، لما بقي للرأسمالية بإمكانياتها الذاتية شيء ذو بال، وكتوضيح للفكرة التي أريد إثباتها، فإننا لو طلبنا من المملكة المتحدة أن تعيد للهند فقط، ما نقلته من مواردها خلال القرن التاسع عشر فقط، والتي مولت بها تقدمها وبفائدة قدرها 6% فقط، وافترضنا أن ما نقلته بريطانيا من الهند لا يزيد عن 100 مليون دولار، لكان المبلغ المطلوب من بريطانيا اليوم هو 820 بليون دولار. فهل تستطيع المملكة المتحدة أن تعيد للهند والباكستان الفقيرتين اليوم هذا المبلغ[1]؟

وإذا كنا لسنا في مجال تقويم الرأسمالية، وإنما في مجال العرض الموضوعي لها، فيكفي أننا علمنا أن هناك أسباباً وعوامل قد ساعدت الرأسمالية على تحقيق النجاح الذي لا ينكره عليها أحد بمقاييسها هي. أما بمقاييس أخرى

---

(1) محبوب الحق، ستار الفقر، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1978، ص 167.

فربما تكون الرأسمالية قد حققت أكبر فشل وهي بسبيل تحقيق هدف الإنسان عندما قادته إلى حربين عالميتين، وعندما أنبتت الشيوعية كمذهب نبت من أرضية رأسمالية «بسبب انهيار الدين نتيجة لتحول الفكر إلى الاهتمام بالأمور الدنيوية خلال الثلاثة قرون الماضية»[1]، ذلك المذهب الذي سنعرضه في المطلب التالي.

## المطلب الثاني

## المنهج الاشتراكي

### تمهيد:

يشارك المنهج الرأسمالي السابق في السيطرة على الفكر والعمل، في العالم الإسلامي، المنهج الاشتراكي. والاشتراكية مشارب متعددة تطلق على مجموعة من النظم، لكن الذي نعنيه منها هنا هو الاشتراكية العلمية أو ما يسمى بالماركسية، إذ هي اللون الغالب من ناحية، وهي المعروضة كمنهج لتحقيق التنمية على العالم الثالث من ناحية ثانية، وهي التي تختفي وراء مختلف الصيغ التي تعيش أو عاشت لفترة في بعض أجزاء العالم الإسلامي، مثل الاشتراكية العربية والاشتراكية الجزائرية من ناحية ثالثة، وهي التي تحظى بوسائط إعلام عالمية، تعرضها وتغري بها، وتدعم من يتبناها، وتنافس بها العالم الغربي في السيطرة على العالم الثالث من ناحية أخيرة. كما أنها الوصف الرسمي للدول المسماة بالشيوعية[2]. وإذا أمكن في العالم المتقدم التفرقة بين الاشتراكية الديمقراطية والاشتراكية الماركسية فإن هذه التفرقة غير قائمة في

---

(1) كاروهنت، الشيوعية نظرياً وعملياً، دار الكتاب المصري، القاهرة، ص 13.

(2) المرجع السابق، ص 11.

العالم الثالث الذي يفتقد الديمقراطية أصلاً، ولكل هذا فإن الاشتراكية في مفهومنا تعني الاشتراكية العلمية أو الماركسية.

وكما عرضنا المنهج الرأسمالي بموضوعية نعرض في هذا المطلب الاشتراكية بنفس الطريقة، وذلك من خلال فروعه الثلاثة الآتية:

**الفرع الأول:** خصائص المنهج الاشتراكي.
**الفرع الثاني:** مقومات نجاح المنهج الاشتراكي.
**الفرع الثالث:** الظروف التي واكبت نجاح المنهج الاشتراكي.

## الفرع الأول: خصائص المنهج الاشتراكي

يتفق الكتاب على أن الخصائص التي تميز المنهج الاشتراكي عن غيره تتمثل في خصيصتين رئيسيتين هما:

### 1 ـ الملكية العامة لوسائل الإنتاج:

تقوم الاشتراكية على مبدأ الملكية ذات الشكل الواحد ـ شأن الرأسمالية ـ بيد أنها تستبدل الملكية العامة بالملكية الخاصة، وتمثل هذه الخصيصة جوهر الاشتراكية وروحها كالملكية الخاصة في الرأسمالية.

وهكذا تتميز الاشتراكية بأن كافة وسائل الإنتاج المادية فيها تخضع لشكل الملكية العامة، وتقوم هذه الخصيصة بتحديد من يصدر القرارات ذات التأثير في الإنتاج، ومن يحدد نوع السلع وأصحابها، وكيفية إنتاجها وتوزيعها بين الإنتاج والاستهلاك وتوزيع السلع الاستهلاكية بين من ساهموا في الإنتاج... إلخ.

ومصدر القرارات هو صاحب الملكية، ولكن من هو صاحبه في المجتمع الاشتراكي؟ تقول الماركسية أن جوهر الاشتراكية هو أن تكون وسائل الإنتاج ملكاً للشعب، ولكن لم يتسن حتى الآن اكتشاف كيف يمكن للشعب أن يسيطر على هذه الوسائل، ولهذا أسند أمر الإشراف عليها باسم الشعب إلى الدولة فأصبحت الملكية الشعبية تعني في الواقع رأسمالية الدولة، فالدولة هي مالكة عوامل الإنتاج، وهي التي تصدر كل القرارات ذات الصبغة التحديدية السابقة.

**2 ـ الخصيصة الثانية للاشتراكية تتمثل في وجود التخطيط:**

بما يعنيه من خطة قومية تضعها هيئة مركزية تحدد أهداف المجتمع وترجمها في شكل مستهدفات كمية لكل قطاع أو إقليم. وتقوم الخطة في الاشتراكية بالدول الذي يؤديه جهاز السوق والأثمان في الرأسمالية، وهي التي عن طريقها تصدر الدولة القرارات التي أتاحتها لها سيطرتها على الملكية العامة باسم الشعب، فتقوم الخطة بتوزيع عوامل الإنتاج على أوجه النشاط الاقتصادي بما يتيح لكل نشاط تحقيق الهدف المكلف به، وتتيح الملكية العامة لوسائل الإنتاج للخطة إمكانية القدرة على إدارة الاقتصاد القومي إدارة كاملة، فتحدد نوع السلع وكمياتها وحجم الاستهلاك وحجم الاستثمار، وتوزع ثمرات الإنتاج على من قاموا به... وهكذا.

هذا يعني أن المستهلك في ظل الاشتراكية ليست له سيادة ولا قدرة على توجيه الإنتاج، بمعنى أن رغباته لا تؤخذ في الحسبان عند تحديد نوع السلع المنتجة، وإنما رغبات المخططين هي التي تتمتع بهذه السيادة، وقد

يراعون رغبات المستهلكين وقد لا يكترثون بها، إذ غالباً ما تحدوهم أهداف أخر تجعلهم يسقطون رغبات الفرد من حسابهم.

## الفرع الثاني: عوامل نجاح المنهج الاشتراكي

بمثل ما يقر الكتاب للرأسمالية بالنجاح، فإنهم يقرون للاشتراكية بأنه لازمها النجاح في تحقيق التقدم المادي لروسيا والدول الاشتراكية الأخر، فحققت التقدم المادي وبنت حضارة شيئية، لا حضارة إنسانية بتعبير المفكر المعروف «رشدي فكار»[1]، وإن كان نجاح المنهج الاشتراكي لا يطاول نجاح المنهج الرأسمالي، وقطعاً هناك عوامل ينسب إليها هذا النجاح، ونحن حسب المنهج الذي اتبعناه مع الرأسمالية نعرض في هذا الفرع عوامل النجاح اللصيقة بالمنهج ونترك العوامل التي واكبته للفرع التالي.

وفي هذا الفرع، لا نجد من عوامل النجاح ما ينسب إلى الماركسية ويعتبر لصيقاً بها إلا الأثر المترتب على اعتبارها عقيدة تقدم تفسيراً كاملاً لكل شئون الحياة ـ وإنما كذلك عند الماركسيين ـ فهي تقيم من قوى الإنتاج فاعلاً يحل محل الآلة[2]. وإذا ترتب على هذا الاعتبار نجاح للمنهج الاشتراكي فإنه يعود أساساً إلى أهمية الإيمان بشيء والاندفاع وراء هذا الإيمان. فالاقتناع

---

(1) رشدي فكار، الماركسية والدين، دار التعاون، القاهرة، ط 2، سنة 1978، ص 77.

(2) يقول جوزيف شومبيتر: «الماركسية بمعنى مهم واحد دين، فهي بالنسبة إلى المؤمن بها تقدم أولاً نظاماً من غايات نهائية يتجسد فيها معنى الحياة وتشكل معايير مطلقة للحكم على الأحداث والأفعال كما تقدم من ناحية ثانية مرشداً إلى تلك الغايات يتضمن خطة للخلاص... إن الاشتراكية الماركسية تنتمي إلى تلك المجموعة الفرعية التي تعد بالجنة على هذا الجانب من القبر»، جوزيف شومبيتر، عشرة اقتصاديون عظام، دار النهضة العربية، ط 1، سنة 1968، ترجمة الدكتور راشد البراوي، ص.

بشيء والانقياد له يعطي النظام قدرة على تحقيق أهدافه، غير أن هذا الحماس سيفتر بعد فترة من تشييد النظام، ويومئذ، فإن العقيدة الماركسية لن تكون قادرة في الميدان الاقتصادي على تعويض أو تغطية الجوانب السلبية في النظرية الماركسية، إذ أنها مست الطاقة الإنتاجية في جوهرها عندما ألغت الملكية الخاصة، والتي قلنا أنها تتفق وفطرة الإنسان. وعندما يفتر الحماس وينكشف الضباب عن الحقيقة المجردة من جانبها العقدي الذي يوفر نجاحها اليوم، فسينتهي المجتمع الشيوعي الحديث كما انتهت سوابق له كمجتمع القرامطة الذي لم تستقر أوضاعه إلا في فترة تكوينه وتشييده، حتى لقد هدد الدولة العباسية أبان مجدها، ثم انهار في غمضة عين.

2 ـ كذلك فإن التخطيط الشامل الذي تمارسه الدول الماركسية مع سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج، يعطي فرصة كبيرة لتجميع وتراكم رأس المال في أقل مدة ممكنة، ومن ثم يمكن رد كل ما تحقق من نجاح في الدول الماركسية إلى العاملين السابقين.

1 ـ العقيدة والانقياد لها.

2 ـ التخطيط الشامل في ظل الملكية العامة.

## الفرع الثالث: الظروف التي واكبت نجاح المنهج الاشتراكي

عندما بدأ تطبيق المنهج الاشتراكي أتيحت له ظروف كان لها أثر كبير على نجاحه، وربما بدون هذه الظروف لم يكن الحماس العقائدي أو التخطيط الشامل ليفعلا شيئاً. وأولى لهذه الظروف هي بداية تطبيق المنهج في الوطن الروسي، فلقد أتاح هذا الوطن لهذا المنهج فرصة النجاح التي كان لها أكبر

الأثر في سيادته فيما بعد على مناطق أخر بإغراء النجاح الأول من ناحية، وبمساعدة الدولة الأولى وتدبيرها من ناحية ثانية.

فما هي العوامل التي أتيحت للمنهج الاشتراكي بسبب بداية تطبيقه في الاتحاد السوفيتي؟

1 ـ يمتلك الوطن الروسي إمكانيات مادية هائلة بسبب ما يضمه من أقاليم شاسعة ذات المناخ المتعدد، والمحتوية على جميع الثروات المادية المطلوبة، إلى جانب الأعداد السكانية الكبيرة. وقد وضعت هذه الإمكانيات تحت قيادة حازمة وضعت لنفسها هدفاً وحيداً هو تحقيق التقدم الاقتصادي وبناء القوة التي تطاول بها الغرب سالكة لذلك كل الطرق مهما بلغت قسوتها.

2 ـ يتطلب تطبيق المنهج الاشتراكي قدراً غير قليل من الديكتاتورية وإكراه الشعب بوسائل القهر، ولقد ألف الروس الخضوع للحكام وتقبل ديكتاتوريتهم حتى «أن موقف الاستسلام هذا الذي يتخذه الروس حيال نظام أوتوقراطي للحكم أصبح تقليداً في روسيا»[1] ومن ثم صادف المنهج بيئة تتفق معه وتتقبل إلى حد ما أسلوبه.

3 ـ الشعب الروسي كما يرى «كاروهنت» ذو ميل فطري إلى أن يرى كل شيء ينقلب من النقيض إلى النقيض تماماً، فهم يأبون أن يقروا أن من الممكن أن يكون التحول وسطاً أو معتدلاً[2].

ولما كانت الماركسية نظرية ثورية تؤمن بقلب الأوضاع رأساً على

---

(1) Toynbee, A.: the world and the west, op. cit. p 12.

(2) كاروهنت، الشيوعية نظرياً وعملياً، مرجع سابق، ص 306.